معاني النفي بـ (ما)
في
آيات التوحيد

د. سهاد جاسم السامرائي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمـــة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعـين، وبعد .. تعدّ مسألة التوحيد أهمّ مسألة تخصّ الإنسان في كلّ مكان وحين ، فهـي الغايـة مـن خلقه، وهي مدار الرسالات السماويّة كلّها، فتلك الرسل والأنبياء جميعهم قد أرسلوا لأمر الناس بالتوحيد ونبذ الشرك في كلّ وجوهه . فهي مسألة خطيرة مآلها الفوز فـي جنـان النعـيم، أو الهلاك في عذاب الجحيم، وهو الخسران المبين. فالتوحيد أخطر قضيّة ينبغي أن تشغل الإنسان، فأثرها لا ينتهي بحياته، بل يمتدّ حتّى بعد مماته، في قبره، وفي يوم يلقى ربّـه، فيجـازى بمـا قدّمه لهذا اليوم . لهذا كان حريّاً بكلّ ذي لبّ أن يسعى إلى فهم هذه العقيدة فهماً صائباً ، إذ ما يزال الكثير من العباد لا يحيط بها علماً ، أو يجهل الكثير من تفاصيلها ؛ لذا ارتأيـت أن أدرس ما نفي من المعاني المتعلّقة بهذه المسألة في كتاب الله (عزّ وجلّ) ، بأداة مـن أدوات النفـي ، وهي (ما) ، فحاولت حصر هذه المعاني ؛ لتكون عنواناً لهذا البحث المتواضع . وجعلـت هـذه الدراسة في تمهيد ــ تناول تعريفاً موجزاً بأداة النفي (مـا)، كمـا ورد فـي كتـب النحـو ــ ومبحثين، أوّلهما يتعلّق بمعاني النفي بهذه الأداة في حال دخولها على الجمل الاسميّة في آيـات الوحيد . والآخر يتعلّق بالمعاني الّتي نفيت بها في حال دخولها علـى الجملـة الفعليّـة . وقـد حاولت أن أذكر المعنى المنفيّ ، وأورد شاهداً أو اثنين له ، مع تحليل للتركيب النحـويّ الّـذي ورد النفي فيه ؛ لأبيّن المعنى المراد منه .

وكانت كتب تفسير القرآن الكريم أهمّ ما استقيت منها مادّة هذا البحث مـن مصـادر، ومن أهمّها: جامع البيان للطبريّ، وتفسير البيضاويّ، وإرشاد العقل السـليم لأبـي السـعود ، والتحرير والتنوير لابن عاشور، فضلاً عمّا أفدت منه من كتب نحويّة تناولـت الحـرف (مـا) بالدرس .

وأخيراً ، أسأل الله العظيم ، ربّ العرش الكريم أن يجعل هذه الدراسة خالصة لوجهه الكريم، وأن يجعل فيها نفعاً للعباد ، إنّه سميع مجيب .

التمهيد

ــ ما :

من الحروف النافية الّتي تدخل على الجمل الاسميّة والفعليّة معاً ، قال الطبريّ : "

يأتي بعد (ما) الفعل والاسم غير أنّ طلبها الاسم أكثر من طلبها الفعل. "[١]

وتفيد نفي الحال[٢]إذا دخلت على الجمل الاسميّة، فإنّنا إن قلنا "ما زيد منطلق . فيكون جواباً ونفياً لقولهم: زيد منطلق . إذا أريد به الحال."[٣]وهي عند دخولها على الجملة الاسميّة تعمل عمل (ليس) عند الحجازيّين ، إن استوفت شروطاً ثلاثة، فيجب تقدّم اسمها على خبرها، وألاّ تقترن بـ(إن) الزائدة،وألاّ ينتقض نفيها بـ(إلاّ) . وهي عند بني تميم لا تعمل في الجملة الاسميّة في كلّ أحوالها[٤] . وعلى كلّ حال ، فإنّ النفي بها يكون للخبر دون الاسم . وإلى هذا أشار الأعلم الشنتمريّ، إذ قال:"اعلم أنّ الفائدة إنّما تكون في الخبر دون الاسم ..."[٥]

وتفيد (ما) نفي الحال أيضاً ، إذا دخلت على الجملة الفعليّة ذات الفعل المضارع ، " فإذا قيل:هو يفعل ، وتريد الحال، فجوابه ونفيه: ما يفعل."[٦] ولنفي الماضي إذا دخلت على الفعل الماضي[٧]،وذكر ابن يعيش أنّ نفيها للماضي ليس مطلقاً،إذ يفيد منه "ما قرب من الحال."[٨]

ويمكن أن ينتقض نفيها بـ(إلاّ) ، ليتحوّل النفي إلى أسلوب من أساليب التوكيد، على أنّ معنى النفي لا يلغى تماماً من هذا الأسلوب ، فلو قلت:ما ضربت إلاّ زيداً ، فإنّك "تنفي عن نفسك (ضرب غير زيد) ، وتثبت لها ضرب زيد..."[٩] فالنفي حاصل لما قبل إلاّ ، والحكم المؤكّد ثابت لما بعدها .

المبحث الأوّل

ما الداخلة على الجملة الاسميّة في آيات التوحيد

وليس الاهتمام في هذه الدراسة بعمل (ما) ، بل بتقصّي المعاني الّتي نفتها عند دخولها على الجملة الاسميّة . وسأحصيها بالآتي :

أ ـ في أسلوب النفي :

---

(١) جامع البيان ٢ / ٣٧٤ ، وينظر : أساليب النفي في القرآن ٨٧ .

(٢) ينظر : المفصل ٥٣ ، واللباب في علل البناء والإعراب ١٧٥ ، وأسرار العربيّة ١٣٩ ، وأساليب النفي في القرآن ٩٣ .

(٣) شرح المفصّل ٨ / ١٠٧ ، وينظر : الفوائد والقواعد ٢٨ .

(٤) ينظر : الخصائص ١ / ١٦٧ ، والمفصّل ١١٢ ، وشرح قطر الندى ١٤٣ ــ ١٤٤ ، واللباب في علل البناء والإعراب ١٢٨ .

(٥) النكت في تفسير كتاب سيبويه ١ /١٩٢ .

(٦) شرح المفصّل ٨ : ١٠٧ .

(٧) ينظر : شرح المفصّل ٨ / ١٠٧ .

(٨) شرح المفصّل ٨ / ١١٠ .

(٩) دراسات في البلاغة العربيّة .

ويمكن حصر المعاني الّتي أفادها النفي بـــ(ما) للجملة الاسميّة في آيات التوحيد ، بما يأتي:

١ــ التوحيد :

وردت (ما) لإبطال كلّ ما يعبد من دونه تعالى ، في مواضـــع كثيـــرة مـــن القـــرآن الكريم، ونجد (من)[١]الزائدة ملاصقة لها في هذا المقام ، لا تنفكّ عنها إذ أفادت هذا المعنى فيما فيما جاء من آي الذكر الحكيم ، كقوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾(الأعـــراف:٥٩) فقـــد ورد هـــذا النفي على لسان نبيّ الله (نوح) عليه السلام، وهو يدعو قومه إلى التوحيد ، إذ ابتدأ بتنبيههم بالنـــداء؛ ليأمرهم بأمر عظيم هو عبادة الله تعالى . وقد تلي هذا الأمر مباشرة بـــ(نفي أيّ إلـــه غيـــره) وهذا النفي كان بـــ (ما) النافية ، مؤكّداً نفيها بـــ (من) المفيدة للتعميم، الداخلة على اســـمها الّذي يدلّ على العموم لتنكيره ، ومؤكّداً ذلك النفي أيضاً بتقديم الخبر(لكم) على الاسم المنفـــيّ. وقد ذكر العكبريّ أنّ فيه تخصيصاً وتبييناً[٢]. وموضع الجملة المنفيّة هو الحاليّة من الضـــمير في (اعبدوا)،أو من اسم الجلالة . وفائدة الحال هي استقصاء "إبطال شركهم بأنّهم أشركوا غيره في عبادته في حال أنّهم لا إله لهم غيره . أو في حال أنّه لا إله لهـــم غيـــره . وذلـــك تشـــنيع للشرك."[٣] وفيه إبطال للحالة الّتي كان عليها من وجّه إليهم الخطاب،"وهي تحتمـــل أن تكـــون حالة شرك كحالة العرب، وتحتمل أن تكون حالة وثنيّة باقتصارهم على عبادة الأصنام دون الله تعالى ...والمنقول أنّ قوم نوح كانوا مشركين ."[٤] وفي هذا معنى الأمر لهم بالإقلاع عن عبادة عبادة غيره تعالى، والأمر بتوحيده تعالى بالعبادة دون غيره، أي: ليس لكم غيره إله[٥] . وهـــذا التركيب ورد في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى:﴿**وَإِلَى عَادٍ أَخَـــاهُمْ هُـــوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ**﴾ (الأعراف:٦٥)

٢ ــ نفي الشريك :

---

(١) ذكر النحويّون أنّ (من) تزاد في النفي ، فتدخل على النكرة ؛ لتفيد العموم والشمول . ينظر : الفوائـــد والقواعد ٢٣٥ .

(٢) ينظر : التبيان في إعراب القرآن ١ / ٥٧٧ .

(٣) التحرير والتنوير ٢ / ٩٥ .

(٤) التحرير والتنوير ٨ / ١٨٨ .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير ٨ / ١٨٩ .

وهذا المعنى تابع للمعنى السابق ، إذ جاءت (ما) نافية للشرك منصوصاً عليه بهذا اللفظ في قوله تعالى: ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ**﴾ فقد جاءت الجملة المنفيّة بـ(ما) معطوفة على جملة منفيّة بـ(لا) ، نافيةً عنهم الملك ، ولو كان شيئاً يسيراً ، ولو كان مثقال ذرّة ، فهم لا يملكون،ولا يشتركون في الملك ،ليثبت أنّ دعاء المشركين لهم باطل ،لا نفع فيه ،فإنّ " آلهتهم الّتي يدعون من دون الله لا يملكون وزن ذرّة في السماوات ولا في الأرض ، لا مشاعاً ولا مقسوماً ، فكيف يكون من كان هكذا ، شريكاً لمن له ملك جميع ذلك . "[1]

٣ ــ نفي الهادي من دونه تعالى :

قال تعالى: ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ.**﴾(الزمر:٣٦) فقد جاءت الجملة المنفيّة بـ(ما)، مقترنة بالفاء الرابطة للجزاء . ووقعت هذه الجملة الّتي نفيت فيها الهداية جواباً للشرط بـ(مَن) ، الّتي كان فعل الضلالة شرطاً لها، فقد نفي الهادي عمّن أضلّه الله تعالى في أسلوب الشرط هذا ،والمعنى:"ومن يضلل الله حتى غفل عن كفايته تعالى وعصمته له وخوفه بما لا ينفع ولا يضر أصلاً ، فما له من هاد يهديه إلى خيرٍ ما."[2] ومن المعلوم أنّ نفي الهداية عمّن أضلّه الله تعالى ، هو نفي مؤكّد بدخول (من) التعميميّة على المنفيّ (هاد) الّذي جاء تنكيره لإفادة العموم .

٤ــ نفي الوليّ والشفيع من دونه تعالى :

قال تعالى:﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ.**﴾(السجدة:٤) إذ جاء نفي الوليّ مجتمعاً مع نفي الشفيع في هذه الآية،بأداة النفي (ما)، وقد أكّد العطف عليه بإعادة النفي بـ(لا) بعد أداة العطف،وقد جاءت (من) الاستغراقيّة قبل المنفيّ زيادة في التوكيد،والمعنى: لا أحد من دونه "يلي أمركم وينصركم منه إن أراد بكم ضرّاً ، ولا شفيع يشفع لكم عنده إن هو عاقبكم على معصيتكم إياه ...فإيّاه فاتّخذوا وليّاً، وبه وبطاعته فاستعينوا على أموركم ، فإنّه يمنعكم إذا أراد منعكم ممّن أرادكم بسوء،ولا يقدر أحد على دفعه عمّا أراد بكم هو؛ لأنّه لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب."[3]

ونفي الشفعاء من دون إذنه في قوله تعالى:﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ**

---

(١) جامع البيان ٢٢ / ٨٩ ، وينظر : فتح القدير ٤ / ٣٢٤ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٧ / ٢٥٥ .

(٣) جامع البيان ٢١ / ٩٠ ــ ٩١ ، وينظر : تفسير البيضاوي ٤ / ٣٥٤ ــ ٣٥٥ / وإرشاد العقل السليم ٧/ ٨٠ .

اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ.﴾(يونس:٣) إذ جاءت الجملة المنفيّة بـ(ما) مؤكّدة بدخول (من) على اسمها المنكّر تعميماً، وبهذا تكون الشفاعة قد نفيت في أسلوب يعدّ من أبلغ الأساليب، "فإنّ نفى جميع أفراد الشفيع بـ(من) الاستغراقية يستلزم نفي الشفاعة على أتمّ الوجوه."[١] وهي جملة مستأنفة حسن وقوعها بعد جملة (الّذي خلق ...) بتمامها؛ "لأنّ المشركين جعلوا آلهتهم شفعاءهم، فإذا أنذروا بغضب الله، يقولون:(هؤلاء شفعاؤنا عند الله)، أي:حماتنا من غضبه. فبعد أن وصفَ الإله الحقّ بما هو منتف عن آلهتهم ، نفى عنهم وصف الشفاعة عند الله وحماية المغضوب عليه منه."[٢] فهذه الجملة المنفيّة ردّ عليهم في زعمهم هذا،وفيها تقرير لعظمته تعالى، وإثبات للشفاعة لمن أذن له[٣]،ونفيها عمّن لم يأذن له عزّ وجلّ،"فلا يشفع أحد نبيّ ولا غيره إلا بإذنه سبحانه."[٤]

٥ ــ نفي العاصم[٥] واالمعين من دون الله :

ومن ذلك النفي ما جاء في قوله تعالى:﴿**وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.﴾**(يونس:٢٧) فدخلت (ما) على جملة اسميّة لتنفي مضمونها، وهو نفي العاصم عمّن كسب السيّئات، وهو نفي مؤكّد بأمرين، الأوّل تقديم الخبر (لهم) على المبتدأ (عاصم). والثاني هو دخول من على المبتدأ؛ لإفادة العموم. والجملة محتملة أن تكون خبراً ثانياً للمبتدأ الواقع أوّل الآية، وحالاً منه، ومحتملة أيضاً أن تكون اعتراضيّة أو مستأنفة[٦] وفيها معنى التهديد والتيئيس[٧]. والمعنى:ليس لهم من يعصمهم من سخط الله وعذابه[٨].

ومنه ما جاء في قوله تعالى:﴿**قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ.﴾**(سبأ:٢٢) فمعنى قوله:(ما لهم به من شرك)هو:ما لهؤلاء الّذين تدعون من دون الله في السماوات والأرض مشاركة، فلا يملكونه انفراداً ولا مشاركة[٩].وقد دخلت (من) على

---

(١) جامع البيان ١١ / ٨٣ .

(٢) التحرير والتنوير ١١ / ٨٨ .

(٣) تفسير البيضاوي ٣ / ١٨٤ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٣٠٨ .

(٥) العاصم هو المانع والحافظ . ينظر : التحرير والتنوير ١١ / ١٤٨ .

(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم ٤ / ١٣٩ ، والتحرير والتنوير ١١ / ١٤٨ .

(٧) ينظر: التحرير والتنوير ١١ / ١٤٨ .

(٨) ينظر: جامع البيان ١١ / ١٠٩ ، وتفسير البيضاوي ٣ / ١٩٤ ، وإرشاد العقل السليم ٤ / ١٣٩ .

(٩) ينظر : جامع البيان ٢٢ / ٨٩ ، والقول المفيد ١٩٢ .

المبتدأ لتوكيد المعنى[١]. وفي قوله:(وما له منهم من ظهير) يعود الضمير في (ما لـه) إلى الله تعالى، وفي:(منهم) إلى الأصنام، والمعنى : ما لله تعالى من هذه الأصنام ظهير ، أي : معين[٢]. فـ(من) حرف جرّ زائد ، وظهير مبتدأ مؤخّر . والمعنى : ليس لله تعالى معين في أفعاله ، "وبذلك ينتفي عن هذه الأصنام كلّ ما يتعلّق به العابدون ، فهي لا تملك شيئاً على سبيل الانفراد ولا المشاركة ولا الإعانة ."[٣]

٦ــ نفي الناصر من دون الله :

قال تعالى:﴿ **وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ.**﴾ (العنكبوت:٢٥) فقد جاءت الجملة المنفيّة لبيان حال المشركين يوم القيامة، إذ سيكون مصيرهم إلى النار، يعد تبرّئ بعضهم من بعض، فلا يجدون لهم من دون الله ناصراً. وقد ورد ذلك المعنى في سياق خطاب للمشركين ، فنرى الأفعال والحروف في الجمل مسندة إلى ضمير الجمع المخاطب. فالكلام موجّه لهم،من ربّهم العليّ،والمعنى:"وما لكم أيها القوم المتخذو الآلهة من دون الله مودة بينكم،من أنصار ينصرونكم من الله حين يصليكم نار جهنم ،فينقذونكم من عذابه."[٤] وقد ذكر أبو السعود أنّ الناصر ورد جمعاً لمناسبة المخاطبين، إذ هم جمع أيضاً[٥]. أيضاً[٥].

وقال عزّ وجلّ : ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ.**﴾(البقرة:١٠٧) فبعد إقرار الملك المطلق له تعالى ، جاء نفي الوليّ والنصير[٦] عن الناس من دونه تعالى ، ودخلت (من) الاستغراقيّة على المنفيّ ، للدلالة على عموم نفيه ، والمعنى : " قل لهم يا محمد ألم تعلموا أن لله سلطان السماوات والأرض ما لكم من دون الله من ولي ... ولا نصير . "[٧] ويلاحظ أنّ هذه الآية ابتدأت بخطاب النبيّ ﷺ، وانتهت بخطاب العباد، وقد أشار الطبريّ إلى ذلك ، وفسّره بقوله: "لأنّ المراد بذلك الّذين وصفت أمرهم من أصحابه، وذلك من كلام العرب مستفيض بينهم فصيح، أن يخرج المتكلّم

---

(١) ينظر : القول المفيد ١٩٢ .

(٢) ينظر : جامع البيان ٢٢ / ٨٩ ، والجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٢٩٥ ، والقول المفيد ١٩٢ .

(٣) القول المفيد ١٩٢ .

(٤) جامع البيان ٢٠ / ١٤٢ ، وينظر : إرشاد العقل السليم ٧ / ٣٧ .

(٥) ينظر : إرشاد العقل السليم ٧ / ٣٧ .

(٦) ذكر البيضاويّ أنّ الفرق بين الوليّ والنصير أنّ الوليّ قد يضعف عن النصرة ، والوليّ قد يكون أجنبيّاً عن المنصور . وذكر أنّ الجمع بينهما فيه معنى العموم . ينظر : تفسير البيضاوي ١ / ٣٨٠ .

(٧) الجامع لأحكام القرآن ٢ / ٦٩ .

كلامه على وجه الخطاب منه لبعض الناس وهو قاصد به غيره ، وعلى وجه الخطاب لواحد وهو يقصد به جماعة غيره ، أو جماعة والمخاطب به أحدهم ، وعلى وجه الخطاب للجماعة والمقصود به أحدهم ... فكذلك قوله: ...(ألم تعلم أنّ الله له ملك السماوات والأرض) وإن كان ظاهر الكلام على وجه الخطاب للنبيّ ﷺ فإنّه مقصود به قصد أصحابِه وذلك بيّن بدلالة قوله:(وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير)."[١]

٧ ــ نفي الإكرام عمّن أهانه الله :

جاء ذلك في قوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ.**﴾(الحج:١٨) إذ جاء نفي الإكرام عمّن أهانه الله تعالى ، في سياق جملة وقعت جواباً للشرط بـ(من) ، مقترناً بالفاء ، والمعنى : " من أهانه بالشقاء والكفر لايقدر أحد على دفع الهوان عنه . "[٢] فالأمور كلّها بيد الله تعالى ، يفعل ما شاء ، يوفّق من يشاء لطاعته ، ويخذل من يشاء ويشقي من يشاء ، ويسعد من يشاء[٣] .

٨ ــ نفي غفلته تعالى عن العباد :

ورد هذا النفي في قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .**﴾(هود:١٢٣) فقد نفي في هذا المعنى في سياق مؤكّد، فقد دخلت (ما) العاملة عمل (ليس) على المبتدأ الّذي أكّد خبره بالباء المؤكّدة ، وعطفت على الأمر بالتوكّل عليه . وقد جاء هذا الأمر موجّهاً الخطاب فيه إلى المفرد المخاطب ، وهو النبيّ ﷺ. وفي الجملة المعطوفة عليه وجّه الخطاب إلى الجمع المخاطبين،وهم المشركون،والمعنى:"وما ربّك يا محمّد بساهٍ عمّا يعمل هؤلاء المشركون من قومك،بل هو محيط به،لا يعزب عنه شيء منه،وهو لهم بالمرصاد، فلا يحزنك إعراضهم عنك، ولا تكذيبهم بما جئتهم به من الحق ، وامض لأمر ربّك فإنّك بأعيننا . "[٤]

٩ــ نفي النطق عن الأوثان :

جاء هذا النفي في قوله تعالى:﴿**ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ** .﴾ (الأنبياء:٦٥) فقد جاءت الجملة الّتي نفي فيها النطق عن الأوثان على لسان عبدتها أنفسهم، وجملة (ما هؤلاء ينطقون) سدّت مسدّ مفعولي (علمت)[٥] . والمعنى : إنّك قد

---

(١) جامع البيان ١ / ١٨١ ــ ١٨٢ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٢ / ٢٤ .

(٣) ينظر : تفسير البيضاوي ١٧ / ١٣١ ، وفتح القدير ٣ / ٤٤٣ .

(٤) جامع البيان ١٢ / ١٤٨ .

(٥) ينظر : التبيان في إعراب القرآن ٢ / ٩٢٢ .

علمت أنّ هؤلاء الأصنام لا تتكلّم،فتخبرنا من صنع هذا بها ، فكيف تأمرنا بسؤالها[١].وقد دلّت (ما) هنا على استمرار نفي النطق عنهم[٢] .

١٠ ــ نفي العلم عن المشركين :

قال تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلونَ . وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ.**﴾ (الزخرف : ١٩ ــ٢٠) إذ جاء نفي العلم عن المشركين بأسلوب غاية في التأكيد ، وقد تمثّل في قوله تعالى:(ما لهم بذلك من علم) فقد تأكّد هذا المعنى بتقديم الخبر (لهم) على المبتدأ (علم) أوّلاً، وبدخول (من) على المبتدأ ؛ لتفيد الاستغراق في هذا النفي ثانياً ، وبتنكير المبتدأ لغرض تعميمه ثالثاً ، فقد نفي عنهم العلم نفياً تامّاً شاملاً مقطوعاً فيه ، وقد ذكر المفسّرون أنّ نفي العلم عنهم مردود على قوله تعالى:((وجعلوا الملائكة الّذين هم عباد الرحمن إناثاً.)) أي مالهم بقولهم هذا من علم، ويمكن أن يكون مردوداً على عبادتهم الأوثان، أي ما لهم بعبادة الأوثان من علم[٣] .

١١ــ براءة الأنبياء من الشرك :

ومنه ما جاء في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .** ﴾ (يوسف:١٠٨) فجملة (وما أنا من المشركين) مؤكّدة لما قبلها في المعنى ؛ لأنّ التوحيد معناه نفي الشرك[٤] . والمعنى : أنا بريء من أصل الشرك ، فلست من المشركين ولا هم منّي[٥] .

ب ـ في أسلوب الحصر :

ويمكن حصر المعاني الّتي أفادها هذا الأسلوب ، في آيات التوحيد بما يأتي :

١ــ التوحيد :

نلاحظ في التعبير عن هذا المعنى،ملازمة (من) لاسم (ما)،وقد ذكر النحويّون أنّ زيادة (من) تفيد معنى"العموم والشمول، نحو قولهم: ما جاءني من رجل.وهذا عندهم يدلّ على أنّه ما جاءني واحد، ولا أكثر منه."[٦]وقد جاء هذا المعنى في آيات كثيرة منها قوله تعالى:﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ. رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ**

---

(١) ينظر : جامع البيان ١٧ / ٤٢ ، وتفسير البيضاوي ٤ / ١٠٠ .

(٢) ينظر : إرشاد العقل السليم ٦ / ٧٥ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٧٣ ــ ٧٤ .

(٤) ينظر : إرشاد العقل السليم ٤ / ٣١٠ ، و القول المفيد ٧٥ .

(٥) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ٩ / ٢٧٤ ، وتفسير البيضاوي ٣ / ٣١٢ ، و فتح المجيد ٧١ .

(٦) الفوائد والقواعد ٢٣٥ .

الْغَفَّار.﴾(ص:٦٥ــ٦٦)فقد جاء أسلوب الحصر في هذه الآية؛ لتقرير التوحيد بإثبات الإلوهيّة لله تعالى وحده، ونفيها عمّا سواه، وقد زيد في تأكيد ذلك المعنى بذكر الاسم الواحد بعد لفظ الجلالة (الله)،متلوّاً بالاسم (القهّار)،موصوفاً بأنّه رب السماوات والأرض وما بينهما،فهو ربّ كلّ شيء،العزيز الغفّار. وقد ذكر البيضاويّ أنّ في هذه الأوصاف تقريراً للتوحيد ووعداً ووعيداً، للموحدين والمشركين،وفيه إنذار " من عقوبة من هذه صفته وأنّه واحد في ألوهيته."[١]

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.﴾**(المائدة:٧٣) فموضع قوله (إله واحد) الرفع ، لا غير ، قال الفرّاء :"لأنّ المعنى : ليس إله إلاّ إله واحد ، فرددت ما بعد (إلاّ) إلى المعنى، ألا ترى أنّ (من) إذا فقدت من أوّل الكلام رفعت ..."[٢] وقال البيضاويّ مفسّراً معنى هذا النفي : " وما من إله إلا إله واحد . وما في الوجود ذات واجب مستحق للعبادة من حيث إنه مبدئ جميع الموجودات إلا إله واحد ، موصوف بالوحدانية ، متعال عن قبول الشركة . ومن مزيدة للاستغراق . "[٣]

٢ ــ ربوبيّته للخلق كلّهم :

ومنه ما جاء في قوله تعالى:﴿**إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.﴾**(هود:٥٦) فقد أثبت ملكه تعالى، وقدرته المطلقة، في أسلوب مؤكّد بأداة النفي (ما) الّتي نقض نفيها بـ(إلاّ)، في قوله:(ما من دابّة إلاّ هو آخذ بناصيتها)، وقد زاد ذلك الأسلوب توكيداً دخول (من) الاستغراقيّة ،على المبتدأ الّذي جاء نكرة لغرض التعميم ، وقد حصر المبتدأ على الخبر الّذي جاء جملة اسميّة تدلّ على كمال قدرته تعالى وملكه عزّ وجلّ، ومعنى الدابّة كما ذكره القرطبيّ هو"أي نفس تدبّ على الأرض."[٤] وقد ذكر البيضاويّ أنّ الأخذ بالنواصي تمثيل للملك والقدرة[٥] . والمعنى : " يصرفها كيف يشاء ويمنعها مما يشاء."[٦]

٣ــ ضلال الكافرين في دعائهم :

---

(١) تفسير البيضاوي ٥ / ٥٣ ــ ٥٤ .

(٢) معاني القرآن ١ / ٢١٦ .

(٣) تفسير البيضاوي ٢ / ٣٥٣ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٩ / ٥٢ .

(٥) ينظر : تفسير البيضاوي ٣ / ٢٤١ ، وإرشاد العقل السليم ٤ / ٢١٨ ، والتحرير والتنوير ١٢ / ١٠٠. ١٠٠.

(٦) الجامع لأحكام القرآن ٩ / ٥٢ .

قال تعالى ﴿ **لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ .** ﴾(الرعد:١٤) إذ تبيّن أنّ دعاء الكافرين باطل ، لا نفع فيه ، وجاء هذا المعنى في الآية مؤكّداً بأسلوب النفي المنتقض بـ(إلاّ) ، مقرّراً بقوله تعالى : (وما دعاء الكافرين إلاّ في ضلال) ، وقد ذكر المفسّرون أنّ معنى هذه الجملة : وما دعاؤهم إلاّ في ضياع ؛ لأنّه شرك ، فيضلّ عنهم دعاؤهم، فلا يجدون منه شيئاً[١] ، وأشار البيضاويّ أنّ في هذه الجملة إقناطاً لهم عن الإجابة[٢]. وقد جاءت هذه الجملة في سياق التشبيه التمثيليّ ، فهم إذ يدعون ما لا قدرة له على الإجابة ، مثلهم كمثل الّذي بسط ذراعيه إلى الماء ليوصله إلى فيه ، وهو لا يصل إليه حتّى يموت عطشاً[٣]. وهي معطوفة على جملة (والّذين يدعون من دونه ...) ؛ لغرض استيعاب " حال المدعوّ وحال الداعي . فبيّنت الجملة السابقة حال عجز المدعوّ عن الإجابة ، وأعقبت بالتمثيل المشتمل على كناية وتلميح ، واشتمل ذلك أيضاً بالكناية على خيبة الداعي . "[٤]

المبحث الثاني

دخول (ما) على الأفعال في آيات التوحيد

أ ـ في أسلوب النفي :

يمكن حصر المعاني الّتي وردت فيها (ما) نافية للفعل الّذي دخلت عليه بما يأتي :

١ــ نفي الوليّ من دون الله تعالى :

ممّا ورد من ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ .** ﴾ (الشورى:٤٦) إذ دخلت (ما) على جملة ابتدأت بفعل ناقص ، وهو (كان) في صيغة المضيّ ، لينتفي الأولياء عن المشركين ، وقد جاء المنفيّ نكرة لغرض تعميمه ، داخلة عليه (من) الاستغراقيّة ، لتزيد في النفي قوّة ، وللكفّار تيئيساً من وجود المنفيّ ، وقد ذكر المفسّرون أنّ معنى نفي الأولياء في هذه الآية هو نفي الأعوان والنصراء ، فليس لهم من يعينهم وينصرهم من دونه تعالى برفع عذابه عزّ وجلّ عنهم ، حسبما كانوا يرجون ذلك في الدنيا[٥]

وقوله تعالى ﴿ **قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً .** ﴾ (الفرقان:١٨) فهذا قول من اتّخذه

---

(١) ينظر : تفسير البيضاوي ٥ / ٩٧ ، والجامع لأحكام القرآن ٩ / ٣٠١ .

(٢) ينظر : تفسير البيضاوي ٥ / ٩٧ .

(٣) ينظر : تفسير البيضاوي ٣ / ٣٢٣ .

(٤) التحرير والتنوير ١٣ / ١٠٩ .

(٥) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ١٦ / ٤٦ ، وإرشاد العقل السليم ٨ / ٣٦ ، وفتح القدير ٤ / ٥٤٤ .

الكافرون شركاء له سبحانه ، فقد جاء النفي بعد قولهم : (سبحانك) الّتي تدلّ على تنزيهه عــزّ وجلّ من ادّعاء المشركين ، وتعجّبهم منه[١] ، والمنفيّ هو الفعل (ينبغي) وما جاء بعده ، وهو اتّخاذهم أولياء من دون الله تعالى ، سواء كانوا فاعلين أو مفعولين ، والمعنى : مــا يصــحّ أن نتّخذ من دونك أولياء،فكيف يصحّ لنا أن ندعو غيرنا أن يتولّى أحداً دونك[٢]. فقد قرئ (نَتّخــذ) على البناء للمجهول ، و(نُتّخذ) على البناء للمفعول[٣] .

٢ــ نفي الولد :

ومنه ما جاء في قوله تعالى:﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَــذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ.**﴾(المؤمنون:٩١) فقد دخلت (ما) النافية على الفعل (اتّخذ) لنفي الولد عنه تعالى، وإثبات وحدانيّته، وقد أكّد هذا النفي بدخول (من) التعميميّة[٤]؛ للدلالة على أنّ هذا الحكم أمر مؤكّد مقرّر، لا شبهة فيه. وفي النفي بـــ(مــا) في هذه الآية دلالة على الزمن المطلق ، فالنفي يشمل الأزمنة كلّها ، وقد علّل أحد الباحثين تلك الدلالة الزمنيّة في هذا الموضع بأنّ مقام النفي فيه "مقام التعليم ؛ وهو لا يفيد إلاّ بــالنفي عــن جميع الأزمنة."[٥]وقد زاد هذا المعنى تأكيداً وتقوية الاستدلال الوارد بعده ، فلو كانت معه آلهــة كما يدّعي المشركون "لانفرد كل إله بخلقه ... ولغالب وطلب القوي الضــعيف، كالعــادة بــين الملوك، وكان الضعيف المغلوب لا يستحق الإلهيّة .وهذا الذي يدل على نفي الشرك يدل علــى نفي الولد أيضا ؛ لأن الوليد ينازع الأب في الملك منازعة الشريك. "[٦]

كما ورد هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ **وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَــا اتَّخَــذَ صَــاحِبَةً وَلا وَلَداً.**﴾(الجــن:٣) ففي هذه الآية وصف له عزّ وجلّ بالتعالي عن اتّخاذ الصــاحبة والولــد ، لعظمته ، ولسلطانه ، ولغناه ، فقد جاء نفي اتّخاذه للصاحبة والولد بعد ذكــر تعــالي ســلطانه وعظمته ، وفائدة هذا النفي بيان لحكم تعاليه[٧] .

٣ــ نفي خفاء الأشياء عنه تعالى :

جاء هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ.**﴾(إبراهيم:٣٨) فقد دخلت أداة النفي (ما) على الفعــل

---

(١) ينظر : ينظر : جامع البيان ١٨ / ١٩٠ ، وتفسير البيضاوي ٤ / ٢١١ .

(٢) ينظر : تفسير البيضاوي ٤ / ٢١١ .

(٣) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ١٠ ، وتفسير البيضاوي ٤ / ٢١١ .

(٤) ينظر : فتح القدير ٣ / ٤٩٦ .

(٥) الحروف العاملة في القرآن الكريم ٦٣٧ .

(٦) الجامع لأحكام القرآن ١٢ / ١٤٦ .

(٧) ينظر: تفسير البيضاوي ٥ / ٣٨٩ .

(يخفي) خفاء الأشياء كلّها عنه تعالى ، فيثبت أنّه البصير العليم بكلّ (شيء) ، فقد أسند هذا الفعل إلى فاعله (شيء) المنكّر تعميماً ، المجرور بـ(من) المزيدة لغرض الاستغراق[١] في التعميم ، فما من أمر يدخل تحت الوجود كائناً ما كان ، في زمان من الأزمان إلا وهو يعلمه سبحانه ، وهذه الجملة المنفيّة جاءت تقريراً لما قبلها وتحقيقاً له[٢] ، وهي خبر منه " تعالى ذكره عن استشهاد خليله إبراهيم إيّاه على ما نوى وقصد بدعائه ((وقولهُ ربّ اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام .)) الآية وأنّه إنّما قصد بذلك رضا الله عنه ، في محبته أن يكون ولده من أهل الطاعة لله ، وإخلاص العبادة له ، على مثل الّذي هو له ، فقال : ربّنا إنّك تعلم ما تخفي قلوبنا عند مسألتنا ما نسألك ، وفي غير ذلك من أحوالنا، وما نعلن من دعائنا فنجهر به ، وغير ذلك من أعمالنا . وما يخفى عليك ــ يا ربّنا ــ من شيء يكون في الأرض ولا في السماء ؛ لأنّ ذلك كلّه ظاهر لك متجلٍّ بادٍ ؛ لأنّك مدبّره وخالقه فكيف يخفى عليك . "[٣] وذكر أبو السعود أنّ العدول من الخطاب إلى الغيبة كان لغرضين ، الأوّل منهما : هو لتربية المهابة . والأخرى : الإيذان بعمومه ، فهو لا يختصّ بالمناسبة أو الموضع الّذي ذكر فيه ، بل هو شامل لجميع الأشياء ، في جميع الأزمنة والأوقات[٤]

٤ ــ نفي الظلم عنه تعالى :

ومن المواضع الّتي جاء فيها هذا المعنى قوله تعالى:﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ.**﴾(هود:١٠١) جاءت هذه الآية بعد حكاية أمر هلاك المشركين ، إذ عصوا أمر نبيّهم ، إذ دعاهم إلى توحيد الله تعالى . فقد نفى ظلمه إيّاهم عن نفسه ، فما حصل لهم كان بسبب إشراكهم وعصيانهم وتكذيبهم للحق[٥] ، فلم تنفعهم ، ولم تغن عنهم شيئاً ، "ولا قدرت أن أن تدفع عنهم، بل ضرّتهم آلهتهم الّتي يدعون من دون الله ...حين جاءهم عذابه ونقمته."[٦] وقد نبّه أبو السعود إلى أنّ الفعل (يدعون) جاء مضارعاً لغرض حكاية الحال الماضية ، وفيه إشارة إلى أنّ المشركين لازالوا يعبدونها من دون الله تعالى[٧] .

٥ ــ نفي بطلان الخلق :

---

(١) ينظر: تفسير البيضاوي ٣ / ٣٥٣ .

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم ٥ / ٥٣ .

(٣) جامع البيان ١٣ / ٢٣٥ ، وينظر : فتح القدير ٣ / ١١٣ ..

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم ٣ / ٥٣ ، وينظر : فتح القدير ٣ / ١١٣ .

(٥) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ٩ / ، والتحرير والتنوير ١٢ / ١٥٩ .

(٦) تفسير البيضاوي ٣ / ٢٦٠ .

(٧) ينظر : إرشاد العقل السليم ٤ / ٢٤٠ .

ورد هذا في قوله تعالى :﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.**﴾ (آل عمران:١٩١) فالمؤمن يتفكّر في خلق الله تعالى ، فيدرك عظمته . وفي هذه الآية مدح للمتفكّرين ، الذاكرين الله في أحوالهم كلّها ، فكان قولهم إذ أدركوا عظمة خالقهم : ((ربّنا ما خلقت هذا باطلاً)) إذ أدركوا أنّ هذا الخلق العظيم إنّما خلق لغاية عظيمة ، ليس هباء ولا لعباً،وفي هذه الجملة استعملت الأداة (ما) في نفي بطلان الخلق،إذ دخلت على الفعل (خلق) في صيغة المضيّ؛لأنّ ما هو موجود قد تمّ خلقه وانقضى ، فصار حقيقة وواقعاً ، فالخلق مثبت ، والمنفيّ هو (باطلاً) ، وقد ذكر العكبريّ أنّه اسم فاعل جاء بمعنى المصدر ، والمعنى : ما خلقت السماء والأرض عبثاً ، فيكون مفعولاً لأجله ، وأجاز أن يكون حالاً على معنى : ما خلقت هذا خالياً عن الحكمة ــ وأجاز أن يكون نعتاً لمصدر محذوف ، على معنى : ما خلقت هذا خلقاً باطلاً[١]. وهذه الأوجه الثلاثة كلّها تدور حول المعنى نفسه ، وهو :ربّنا"لم تخلق هذا الخلق عبثاً ولا لعباً،لم تخلقه إلاّ لأمر عظيم من ثواب وعقاب ومحاسبة ومجازاة "[٢] و"دليلاً على قدرتك وحكمتك والباطل الزائل الذاهب "[٣]

٦ ــ بطلان معبوداتهم :

قال تعالى:﴿**أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ.**﴾(يونس:٦٦) فقد دخلت (ما) على الفعل (يتّبع) الّذي حذف مفعوله ، دلّ عليه قوله تعالى: (إن يتّبعون إلاّ الظنّ). أمّا شركاء، فهو مفعول (يدعون)[٤]. والجملة المنفيّة معطوفة على الجملة المثبتة (لله من في السماوات ومن ومن في الأرض) . والمعنى : أنّ جميع الموجودات ملك لله تعالى ، واتّباع المشركين لأوثانهم اتّباع خاطئ[٥].فإنّهم "لا يتبعون شركاء على الحقيقة بل يظنون أنها تشفع أو تنفع."[٦]

٧ ــ نفي الحجّة والدليل عن الأوثان :

منه ما جاء في قوله تعالى :﴿**قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ.**﴾ (الأعراف:٧١) فمعنى السلطان هو الحجّة الّتي يصدّق بها المخالف ، فهي تتسلّط

---

(١) ينظر : التبيان في إعراب القرآن ١ / ١٦٢ .

(٢) جامع البيان ٤ / ٢١٠ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٤ / ٣١٥ ، وينظر : تفسير البيضاوي ٢ / ١٣١ .

(٤) ينظر : التبيان في إعراب القرآن ١ / ٥٧٧ .

(٥) ينظر : التحرير والتنوير ١١ / ٢٢٥ .

(٦) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ٨ / ٣٦٠ ، وإرشاد العقل السليم ٤ / ١٦٢ .

على نفسه وتقنعه ، ونفى أن تكون تلك الحجّة في أوثانهم " منزلة من الله تعالى ؛ لأنّ أمور الغيب ممّا استأثر الله بعلمه . "[١] والمستحقّ للعبادة بالذات هو الموجد للكلّ[٢] . فعبادتهم لها باطلة لا تغني عنهم شيئاً ، لأنّ ما يعبدونه لم يتعدّ كونه أسماء ،هم من سمّاها ، وهي باطلة ليس لها دليل ، أو سلطان ، أو حجّة في عبادتها .

وقال تعالى :﴿**وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طَاغِينَ.**﴾(الصافات:٣٠) فقد دخلت (ما) النافية على فعل الكون، متقدّماً خبره مؤخّراً اسمه المجرور بـ(من) الاستغراقيّة، لتأكيد المعنى بتقديم ما حقّه التأخير، وبدخول الحرف الزائد الّذي يدلّ على الشمول للمنفيّ النكرة (سلطان)[٣]، والمعنى :"وما كان لنا عليكم من حجّة فنصدّكم بها عن الإيمان ، ونحول بينكم من أجلها وبين اتباع الحق ... بل كنتم أيّها المشركون قوماً طاغين على الله ، متعدّين إلى ما ليس لكم التعدّي إليه من معصية الله وخلاف أمره ."[٤] وفي هذا النفي الّذي ورد ورد على لسان الرؤساء جنّهم وإنسهم ، الّذين دعوا الناس إلى الشرك ، معنى التخلّي عن أتباعهم والتبرئة منهم عند الحساب . فنفوا الحجّة والبرهان في ما دعوهم إليه من ضلال ، فليس هناك ما يجبرهم على اتّباعهم ، فهم " كانوا ضالين في أنفسهم وثانيا بأنهم ما أجبروهم على الكفر إذ لم يكن لهم عليهم تسلط وإنما جنحوا إليه؛ لأنهم كانوا قوما مختارين الطغيان . "[٥]

٨ ــ نفي علمهم بالبعث :

فقد جاء هذا في قوله تعالى:﴿**أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ.**﴾(النحل:٢١) وفي هذا دليل قاطع على أنّ ما يفعله الكافرون من إشراكهم بربّهم الواحد، باطل لا فائدة منه؛ لأنّهم يدعون من دونه من كانت هذه صفته، وهي الموت المناقض للحياة، والجهل المنافي للعلم ، فهم أموات لا يعلمون متى سيبعثون، "فكيف يكون لهم وقت جزاء على عبادتهم والإله ينبغي أن يكون عالما بالغيوب."[٦] وقد ذكر القرطبيّ أنّ الوصف هو

---

(١) التحرير والتنوير ٨ / ٢١٣ .

(٢) تفسير البيضاوي ٣ / ٣٣ .

(٣) و السلطان هو الحجّة ، أي ليس لكم حجّة في ترك الحقّ . ينظر : جامع البيان ٢ ، ٥٠ ، والجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٧٥ .

(٤) جامع البيان ٢٣ / ٥٠ .

(٥) تفسير البيضاوي ٥ / ١٠ .

(٦) تفسير البيضاوي ٣ / ٣٩٢ .

هو للكفّار ، فهم أموات موت كفر، وما يدرون متى وقت البعث، بل إنّهم لا يستعدّون له؛ لأنّهم لا يؤمنون به[١].

٩ ــ نفي استجابتهم للدعاء :

قال تعالى : ﴿ **إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ.** ﴾ (فاطر:١٤) فقد جاءت الجملة المنفيّة بـ(ما) جواباً للشرط بـ(لو)، فهم لا يسمعون دعاء من يدعوهم ،ولو سمعوا ــ والسمع ممتنع منفيّ عنهم ــ ما استجابوا، فهم لا يستطيعون إلى الإجابة سبيلاً،قال البيضاويّ مفسّراً هذه الآية :"إن تدعوا أيها الناس هؤلاء الآلهة التي تعبدونها من دون الله لا يسمعوا دعاءكم لأنها جماد لا تفهم عنكم ما تقولون ...ولو سمعوا دعاءكم إيّاهم،وفهموا عنكم أنّها قولكم بأن جُعل لهم سمع يسمعون به ما استجابوا لكم؛ لأنها ليست ناطقة ."[٢]وقد ذكر أبو السعود أنّ الجملة الشرطيّة هذه جملة استئنافيّة جاءت لغرض تقرير مضمون الجملة الّتي سبقتها[٣].

١٠ــ نفي نفعهم :

نجد هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿**وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ.**﴾(هود:١٠١) فقد اقترنت الجملة المنفيّة بـ(ما) بالفاء الّتي تدلّ على عاقبة الجملة الّتي سبقتها، فقد ظلموا أنفسهم بدعائهم أوثانهم من دون الله تعالى، فلم تغن عنهم شيئاً، ولم تنفعهم،وفي هذا النفي بيان لخسرانهم في دعواهم تلك . فلم تنفعهم " ولا قدرت أن تدفع عنهم ، بل ضرّتهم آلهتهم الّتي يدعون من دون الله من شيء ... حين جاءهم عذابه ونقمته."[٤] " ولكنّهم أوجبوا لأنفسهم بمعصيتهم الله وكفرهم به عقوبته وعذابه ،فأحلّوا بها ما لم يكن لهم أن يحلّوه بها ، وأوجبوا لها ما لم يكن لهم أن يوجبوه لها . "[٥] ومن الملاحظ أنّ الفعل المنفيّ بـ(ما) جاء بصيغة الماضي ، وجاء فاعله موصوفاً باسم موصول جاءت صلته (يدعون) بصيغة المضارع ، تلك الصيغة الّتي دلّت على حكاية الحال الماضية ، مع الإشارة إلى استمرار عبادتهم لها ، وقد أشار إلى ذلك أبو السعود ، إذ قال : "أوثر صيغة المضارع حكاية للحال الماضية ، أو دلالة على استمرار عبادتهم لها . "[٦]

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ٩٤ .

(٢) جامع البيان ٢٢ / ١٢٥، وينظر : الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ٣٣٦ ، وتفسير البيضاوي ٤ / ٤١٥ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٧ / ١٤٨ .

(٤) تفسير البيضاوي ٣ / ٢٦٠ .

(٥) جامع البيان ١٢ / ٢١٣ .

(٦) إرشاد العقل السليم ٤ / ٢٤٠ .

١١ــ براءتهم منهم :

ومن هذا المعنى ما جاء في قوله تعالى:﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ.**﴾(يونس:٢٨) إذ جاء النفي بـــ(ما) في هذه الآية في جملة محكيّة عن لسان من أشركه الكافرون بعبادة الله تعالى، إذ يتبرءون منهم يومئذ، وأنكروا عبادتهم إيّاهم ونفوها عنهم. فيقولون لهم: ما كنتم إيّانا تعبدون . وفي هذا النفي دلالة على برائتهم من "عبادتهم فإنّهم إنّما عبدوا في الحقيقة أهواءهم ؛ لأنّها الآمرة بالإشراك لا ما أشركوا به."[١] وقد روي عن مجاهد أنّه قال: "يكون يوم القيامة ساعة فيها شدّة، تنصب لهم الآلهة الّتي كانوا يعبدون، فيقال:هؤلاء الّذين كنتم تعبدون من دون الله . فتقول الآلهة : والله ما كنّا نسمع ولا نبصر ولا نعقل، ولا نعلم أنّكم كنتم تعبدوننا. فيقولون : والله لإيّاكم كنّا نعبد . فتقول لهم الآلهة : فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنّا عن عبادتكم لغافلين."[٢]وفي هذا إنكار لهؤلاء المعبودات الباطلة لعبادة من اتّخذوهم شركاء[٣].

١٢ــ نفي إغناء العباد عن بعضهم من دون الله :

نجد هذا في قوله تعالى:﴿ **وَقَالَ يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ.** ﴾ (يوسف:٦٧) إذ دخلت (ما) مباشرة على الفعل المنفيّ (أغني) ، وقد ورد هذا النفي على لسان نبيّ الله يعقوب (عليه الصلاة والسلام) مخاطباً أبناءه ، وهو ينصحهم بدخول مصر من أبواب متفرّقة . فقد نفى عن نفسه إغناءه عن أولاده شيئاً من قضاء الله وحكمه[٤] ، وهو نبيّ يقرّ بذلك لأقرب الناس إليه وأحبّهم ، في حياته ، فهو عند مماته أعجز ، والإغناء عنه أنفى "وأراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه ، مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة ..."[٥] ويلاحظ في هذا النفي أنّ (ما) دخلت على الفعل المضارع في سياق رواية الحدث ، وهي في هذا السياق تدلّ على زمن الحال والمستقبل القريب ، وهو يبيّن لهم أمراً حقّاً لا شبهة فيه ، منبّهاً إيّاهم على أنّ النافع والضارّ هو الله ، وأنّ من ينفذ حكمه هو وحده ، لا غيره ، مهما كانت منزلته ، ولو كان نبيّاً يدعو إلى الحقّ . والمعنى : "وما أقدر أن أدفع عنكم من قضاء الله الذي قد قضاه عليكم من شيء صغير ولا كبير لأن قضاءه نافذ في خلقه...ما القضاء والحكم إلا لله دون ما سواه من الأشياء فإنه يحكم في خلقه بما يشاء فينفذ فيهم حكمه

---

(١) تفسير البيضاوي ٣ / ١٩٥ ، وإرشاد العقل السليم ٤ / ١٤٠ .

(٢) جامع البيان ١١ / ١١١ .

(٣) فتح القدير ٢ / ٤٣٩ .

(٤) ينظر تفسير هذه الآية في : الجامع لأحكام القرآن ٩ / ٢٢٨ ، وتفسير البيضاوي ٣ / ٢٢٩ .

(٥) التحرير والتنوير ١٣ / ٢١ .

ويقضي فيهم ولا يرد قضاؤه."[١] وقد تقرّر هذا المعنى بعد ذلك في قوله تعالى:﴿**وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ.**﴾(يوسف:٦٨) وقد جاء النفي في هذا الموضع بدخول (ما) على فعل الكون الماضي، الداخل مباشرة على الفعل المضارع ؛ ليدلّ على الاستمرار في الحدث ، فالأمر الوحيد الّذي ثبت عن دخولهم كما أمرهم أبوهم هو " أنهم قضوا وطرا ليعقوب بدخولهم لا من طريق واحد خوفا من العين عليهم فاطمأنت نفسه أن يكونوا أوتوا من قبل ذلك أو نالهم من أجله مكروه . "[٢]

١٣ــ نفي قدرة العباد على إنبات الشجر :

قال تعالى :﴿**أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ .** ﴾ (النمل:٦٠)

في سياق تذكير بنعم الله تعالى على عباده ؛ بياناً لقدرته عزّ وجلّ ، جاءت (ما) نافية لجملة ابتدأت بـ(كان) الّتي جاء اسمها مصدراً مؤوّلاً من (أن) ومنصوبها الفعل (تنبتوا) ، فالكون منفيّ دخل على جملة اسميّة ليست خالية ممّا تدلّ عليه الأفعال من معنى التجدّد والحركة ، ذلك المعنى الذي نجده في الفعل (تنبتوا) ، الذي جاء جزءاً من اسم (كان) الّتي تقدّم خبرها (لكم) عليه اهتماماً به ؛ لأنّه هو المخاطب ، وهو صاحب الشأن في أنّ الرسالات السماويّة أنزلت إليه ، فهو المقصود في الاختبار الدنيويّ ، وهو من سيجازى في الآخرة ، فأمّا خلود في نعيم ، أو في عذاب . وقد وقع الجملة الاسميّة في موضع النعت لكلمة (حدائق) ، فهذه الحدائق الّتي أبدعها الخالق عزّ وجلّ ، موصوفة بأنّها ذات بهجة ، وأنّ من خلقت له ، وأنعم بها عليه ، لا يستطيع إنبات شجرها[٣]. وقد ذكر العكبريّ هذا الموضع الإعرابيّ لهذه الجملة وأجاز أن تكون جملة استئنافيّة[٤]. وذكر القرطبيّ أنّ معنى النفي في هذه الجملة هو"الحظر والمنع...أي ما كان للبشر، ولا يتهيّأ لهم ، ولا يقع تحت قدرتهم أن ينبتوا شجرها . إذ هم عجزة عن مثلها. "[٥] وقد أوضح الطبريّ ذلك العجز بقوله : " أنبتنا بالماء الذي أنزلناه

---

(١) جامع البيان ١٣ / ١٤ .

(٢) جامع البيان ١٣ / ١٤ .

(٣) جاء في إرشاد العقل السليم : " ما كان لكم : أي ما صحّ وما أمكن لكم أن تنبتوا شجرها ، فضلاً عن ثمرها وسائر صفاتها البديعة ٦ / ٢٩٣ .

(٤) ينظر : التبيان في إعراب القرآن ٢ / ١٧٤ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١٣ / ٢٢١ ، وينظر : فتح القدير ٤ / ١٤٦ .

من السماء لكم هذه الحدائق، إذا لم يكن لكم ، لولا أنه أنزل عليكم الماء من السماء طاقة، أن تنبتوا شجر هذه الحدائق ولم تكونوا قادرين على ذهاب ذلك؛ لأنه لا يصلح ذلك إلا بالماء. "[١]

١٤ــ تقصير العباد في حق خالقهم

نجد هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .** ﴾(الأنعام :٩١) فقد ابتدأت الآية في نفي قدر العباد الله حقّ قدره ، فما " عرفوه حق معرفته في الرحمة والإنعام على العباد، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، حين أنكروا الوحي وبعثه الرسل ــ عليهم الصلاة والسلام ــ وذلك من عظائم رحمته وجلائل نعمته ، أو في السخط على الكفّار، وشدّة البطش بهم حين جسروا على هذه المقالة . "[٢] وقد روى القرطبيّ عن ابن عبّاس قوله في تفسير هذه الآية : "ما آمنوا أنّه على كلّ شيء قدير."[٣] وقال الطبريّ في تفسير هذه الآية:"وما أجلوا الله حق إجلاله، ولا عظموه حق تعظيمه ... حين قالوا لم ينزّل الله على آدميّ كتاباً ولا وحياً."[٤]وفي هذا النفي ما فيه من معنى التبكيت والإنكار على من كانت هذه حاله ، وقد جاء في فتح القدير أنّ في هذه الجملة من هذين المعنيين ما لا يقادر قدره مع إلجائهم إلى الاعتراف بما أنكروه من وقوع إنزال الله على الأنبياء؛ لأنّهم بشر " فبطل جحدهم وتبين فساد إنكارهم."[٥].

١٥ــ ردّ المشركين على دعوة الأنبياء :

ورد ذلك المعنى حكاية عن المشركين في سياق الحديث عن ردّهم على رسلهم ، وذلك في قوله تعالى : ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .** ﴾ (النحل:٣٥) إذ جاء هذا النفي على لسان المشركين ، واقعاً في جواب أداة الشرط (لو) . وقد ذكروا هذه الجملة الشرطيّة الّتي جاءت جملة النفي جزءاً منها لغرض الاستهزاء[٦]، الاستهزاء[٦]، أو لإنكار لما أنكر عليهم من الشرك ، وما إليه من أفعال المشركين وعقائدهم ، "محتجّين بأنّها لو كانت مستقبحة، لما شاء الله صدورها عنهم، ولشاء خلافه...لا اعتذاراً ؛ إذ لم

---

(١) جامع البيان ٢٠ / ٣ .

(٢) تفسير البيضاوي ٢ / ١٢٩ ، وينظر : إرشاد العقل السليم ٣ / ١٦١، وفتح القدير ٢ / ٩٤ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٧ / ٣٧ .

(٤) جامع البيان ٧ / ٢٦٦ .

(٥) فتح القدير ٢ى / ١٣٩ .

(٦) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ١٠ / ١٠٣ ، وتفسير البيضاوي / ٣٩٦ .

يعتقدوا قبح أعمالهم."[١]، وقيل: إنّ قولهم هذا كان تكذيباً منهم للرسول ﷺ، وطعناً في الرسالة[٢]، فكان الجواب على قولهم في بيان أنّ مثل فعلهم الشنيع هذا " فعل الذين من قبلهم من الأمم، أي أشركوا بالله ، وحرموا حله ، وردوا رسله ، وجادلوهم بالباطل حين نبهوهم على الخطأ وهدوهم إلى الحق . "[٣]

١٦ ــ براءة الأنبياء من الشرك :

نجد هذا المعنى في قوله تعالى:﴿**وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ.**﴾ (يوسف:٣٨) فقد جاءت جملة النفي بقوّة البيان لما اقتضته جملة (واتّبعت ملّة آبائي)،فقد صار التوحيد كالسجيّة لهم، عرف بها أسلافه بين الأمم، وعرّفهم نبيّ الله يوسف(عليه السلام)بها لنفسه في هذه الفرصة، ولا يخفى ما اقتضته صيغة الجحود من المبالغة في انتفاء الوصف عن الموصوف ، هذا فضلاً عن دخول (من) الّتي تفيد العموم ، على الاسم النكرة (شيء) المقصود بالنفي[٤]. وقد جاءت هذه الجملة بهذا التركيب المتين، متبيّناً فيها مدح آبائه الّذين اتّبعوا الدين الخالص الّذي ارتضاه الله تعالى ، ومدح له إذ اتّبع هذا الدين[٥]. وفيه ترغيب للمخاطبين باتّباع هذا الدين الحقّ ، وهو التوحيد ونبذ جميع ما يعبد من دونه تعالى؛ لأنّه سبيل الخسران المبين . وفيه تنبيه على عدم جواز الشرك،قال الطبريّ في الجملة المنفيّة بـ(ما) في هذه الآية إنّ معناها:"ما جاز لنا أن نجعل لله شريكا في عبادته وطاعته . "[٦]

ب ـ في أسلوب الحصر :

ويمكن حصر المعاني الواردة في هذا التركيب في آيات التوحيد بما يأتي :

١ ــ الأمر بالتوحيد :

ومنه قوله:﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.**﴾(التوبة:٣١) فقد جاء هذا الأمر في هذه الآية بأسلوب الحصر ، فهم إذ اتّخذوا أحبارهم رهباناً من دونه تعالى ، لم يكونوا قد أمروا بشيء ، إلاّ عبادة الواحد القهّار موحّدين مخلصين . وقد ذكر المفسّرون هذا المعنى، فقال الطبريّ في بيان المعنى :" وما أمر هؤلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا الأحبار

---

(١) تفسير البيضاوي ٣ / ٣٩٦ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٥ / ١١٢ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٥ / ١١٢ .

(٤) ينظر : التحرير والتنوير ١٢ / ٢٧٣ .

(٥) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ٢ : ٢١٣ .

(٦) جامع البيان ١٢ / ٢١٨ .

والرهبان والمسيح أربابا إلا أن يعبدوا معبودا واحدا وأن يطيعوا إلا ربا واحدا دون أرباب شتى وهو الله الذي له عبادة كل شيء وطاعة كل خلق المستحق على جميع خلقه الدينونة له بالوحدانية والربوبية. "[1] وفي هذ الآية دليل على وجوب الإخلاص في العبادة[2] ؛ لأنّ الأمر بالعبادة جاء مرتبطاً بالإخلاص،إذ أمروا بعبادة الله مخلصين له الدين،فجاءت الحال (مخلصين)، لتؤكّد على التوحيد وإخلاص النيّة في عبادته عزّ وجلّ ،" فإن تخصيص العبادة به تعالى لا يتحقق إلا بتخصيص الطاعة أيضا به تعالى وحيث لم يخصوها به تعالى لم يخصوا العبادة به سبحانه ."[3]

قال تعالى:﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ.**﴾(البيّنة:٥) فقد انتقض النفي بـ(ما) في هذه الآية بـ(إلاّ)، على سبيل الحصر، لغرض التوكيد، والمعنى: وما أمر هؤلاء الكفّار في التوراة والإنجيل إلاّ أن يوحّدوا الله تعالى مخلصين له ، "وفي هذا دليل على وجوب النية في العبادات فإن الإخلاص من عمل القلب وهو الذي يراد به وجه الله تعالى لا غيره "[4]، فلا يخالطون طاعة ربّهم بشرك، كما أمروا في هذا السياق أن يكونوا حنفاء لله تعالى، على ملّة إبراهيم عليه السلام، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة إلى مستحقّيها[5].وقد جاءت الجملة المبدوءة بالحرف (ما) دالّة على بلوغهم الغاية الغاية في قبح فعلهم،وتقريعهم وتوبيخهم على ما فعلوا من التفرّق بعد مجي البيّنة[6].

كما ورد ذلك المعنى في قوله تعالى:﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.**﴾(الذاريات:٥٦) فبأداةِ النفي (ما) ونقضِ نفيها بـ(إلاّ) ورد أسلوب التوكيد بالحصر؛ ليحصر سبب خلق الجنّ والإنس بعبادة الله وحده،وقد فسّر معنى (ليعبدون):لآمرهم بالعبادة[7].وقيل معناه: ليكونوا عباداً له تعالى[8]، وقيل معناه: وما خلقت السعداء من أهل الجنّ

---

(١) جامع البيان ١٠ / ١١٥ ، وينظر : الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ١٤٤ ، وتفسير البيضاوي ٣ / ١٤١ ، وإرشاد العقل السليم ٤ : ٦٠ ــ ٦١.

(٢) ذكر القرطبيّ هذا الأمر ، مبيّناً أنّ الإخلاص من عمل القلب ، وهو أن يراد وجه الله تعالى في العمل ، لا غيره . ينظر : الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ١٤٤ .

(٣) إرشاد العقل السليم ٤ : ٦١ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ١٤٤ .

(٥) ينظر : جامع البيان ٣٠ / ٢٦٣ ، والجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ١٤٤ ، وإرشاد العقل السليم ٩ / ١٨٥. ١٨٥.

(٦) ينظر : إرشاد العقل السليم ٩ / ١٨٥ ، وفتح القدير ٥ ٤٧٦ .

(٧) روي هذا القول عن عليّ (رضي الله عنه) ، وأخذ به الزجّاج . ينظر : الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ٥٥ ، وتفسير البيضاوي ٥ / ٢٤٢ .

(٨) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ٥٦ ، وتفسير البيضاوي ٥ / ٢٤٢ .

الجنّ والإنس إلاّ ليوحّدون ، وهم المؤمنون منهم [١]. وقيل معناه : إلاّ ليقرّوا لي بالعبادة طوعاً أو كرهاً[٢] . وقيل : معناه:إلاّ لآمرهم وأنهاهم[٣]. وروى القرطبيّ عن الكلبيّ أنّه قال إنّ المعنى المعنى : ليوحّدون ، " فأما المؤمن فيوحّده في الشدّة الرخاء ، وأمّا الكافر ، فيوحّده في الشدّة والبلاء دون النعمة والرخاء."[٤]وقيل : إنّ " العبادة اسم جامع لكلّ ما يحبّه الله ويرضاه ، من الأقوال والأعمال الظاهرة."[٥]وعلى كلّ هذه المعاني فإنّ في الجملة بياناً للعلّة من خلق الجنّ والإنس، وهي أن يعبدوه تعالى وحده لا شريك له ، قال أبو السعود في هذه الجملة أنّها "استئناف مؤكد للأمر، مقرّر لمضمون تعليله؛ فإنّ كون خلقهم مبغيّاً بعبادته تعالى ؛ ممّا يدعوه عليه الصلاة والسلام إلى تذكيرهم ، ويوجب عليهم التذكر والاتّعاظ."[٦]

٢ــ اختلاط إيمان المشركين بشرك :

نجد هذا في قوله تعالى:﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ.وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ.**﴾(يوسف: ١٠٥ ــ١٠٦) فالجملة المتصدّرة بـ(ما)(وما يؤمن) في موضع الحال من الضمير في (يمرّون)،ومعناها:وما يؤمن أكثر الناس إلاّ وهم مشركون[٧]، أي إنّ إيمانهم قد اختلط بشرك . وقيل : إنّ "المراد بها المشركون الّذين يؤمنون بتوحيد الربوبيّة ، ويكفرون بتوحيد الألوهيّة. "[٨] والاستثناء واقع من عموم الأحوال، والمستثنى هو الجملة الحاليّة (وهم مشركون)،فهي حال من (أكثرهم) ؛ لتشنيع حالهم." وإسناد هذا الحكم إلى (أكثرهم) باعتبار أكثر أحوالهم وأقوالهم؛لأنّهم قد تصدر عنهم أقوال خالية عن ذكر الشريك ."[٩]

٣ــ تبرير المشركين لإشراكهم :

قال تعالى : ﴿ **أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ.**﴾ (الزمر:٣) فهذا بيان لحال من اتّخذ الأولياء من دونه تعالى ، فهم لا ينكرون

---

(١) ينظر : الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ٥٥ .

(٢) وقد روي هذا القول أيضاً عن عليّ (رضي الله عنه) ، وحسّنه القرطبيّ . ينظر : الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ٥٥ ــ ٥٦ .

(٣) وهو مرويّ عن مجاهد . ينظر : الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ٥٦ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٧ / ٥٦ .

(٥) فتح المجيد ١٧ .

(٦) إرشاد العقل السليم ٨ / ١٤٤ ، وينظر : فتح القدير ٥ / ٩٢ .

(٧) ينظر : التحرير والتنوير ١٣ / ٦٣ .

(٨) القول المفيد ٩٧ .

(٩) التحرير والتنوير ١٣ / ٦٣ .

ربوبيّته تعالى ، إذ يبرّرون عبادتهم لهم بابتغاء القرب إلى العظيم الواحد القهّار ، فهم اتّخذوهم في عبادتهم إيّاهم وسيلة تقرّبهم إلى الواحد الأحد ، وما فعلهم هذا وإشراكهم إلاّ حبطة لعملهم ، إذ أشركوا به عزّ وجلّ ، فكانوا كافرين خاسرين ، فالحكم في خلافهم هذا لربّهم الّذي وصفهم بالكذب والكفر ، والله تعالى لا يهدي من كانت هذه صفته . وقد بيّن العكبريّ الحكم الإعرابيّ للجملة الّتي ابتدأت بـ(ما) ، فذكر أنّها في موضع المفعول لفعل القول المحذوف ، فكان هذا الفعل وهذه الجملة خبراً عن المبتدأ (الّذين) ، والتقدير : يقولون : ما نعبدهم ...[1] وذكر أبو أبو السعود وجهاً غيره، إذ ذهب إلى أنّ موضع هذه الجملة هو الحال بتقدير القول من الواو في (اتّخذوا) ، وهي حال " مبينة لكيفية إشراكهم وعدم خلوص دينهم "[2] وقد روى القرطبيّ عن قتادة مفسّراً هذه الآية : " كانوا إذا قيل لهم: من ربّكم وخالقكم ؟ومن خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء؟ قالوا: الله . فيقال لهم :ما معنى عبادتكم الأصنام ؟ قالوا : ليقرّبونا إلى الله زلفى ويشفعوا لنا عنده . "[3] وبيّن الشوكانيّ ذلك بتفصيل أكثر فقال :" والضمير في (نعبدهم) راجع إلى الأشياء الّتى كانوا يعبدونها من الملائكة وعيسى والأصنام ، وهم المرادون بالأولياء . والمراد بقولهم: إلا ليقربونا إلى الله زلفى الشفاعة . "[4] فكان عملهم محبطاً ، فمصيرهم الخلود في عذاب مقيم .

٤ــ تقليد المشركين لآبائهم :

قال تعالى:﴿ **فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ.**﴾(هود:١٠٩)فقد جاءت (ما) في سياق أسلوب الحصر مع (إلاّ)، لتوكيد أمر هو أنّ ما عبده المشركون هو نفسه ما عبده آباؤهم ، فهم يقلّدونهم في عبادتهم الباطلة ،وهذا المعنى سبق بنهي النبيّ(صلّى الله عليه وسلّم) عن الشكّ في ما عبده المشركون،فهم مقلّدون لمن كان في ضلالة من قبل ، وهم الآباء . ونتيجة هذه العبادة هو الخسران المبين ، المتمثّل فيما سيوفّيهم ربّهم من نصيبهم من العذاب جزاء على شركهم ، فما يغني عنهم آباؤهم ولا معبوداتهم من دون الله شيئاً . وبيّن الطبريّ أنّ في هذا المعنى إشارة إلى أنّ عبادتهم هذه لا دليل لهم عليها ، ولا حجّة ، ولا أمر أمرهم الله به ؛ فهي لا تعدو كونها تقليداً أعمى للآباء[5] وقد ذكر البيضاويّ أنّ الجملة المبدوءة بـ(ما) هي جملة استئنافيّة معناها " تعليل عن النهي عن المرية ، أي : هم وآباؤهم سواء في الشرك .أي : ما يعبدون عبادة إلا

---

(١) ينظر : التبيان في إعراب القرآن ٢ / ٢١٤ ، وينظر : تفسير البيضاوي ٥ / ٥٨ .

(٢) إرشاد العقل السليم / ٢٤١ ، وينظر : فتح القدير ٤ / ٤٤٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ٢٣٣ .

(٤) فتح اقدير ٤ / ٤٤٩ .

(٥) ينظر : جامع البيان ٢ / ١٢٢ .

كعبادة آبائهم ، أو ما يعبدون شيئا إلا مثل ما عبدوه من الأوثان ، وقد بلغك ما لحق آباءهم من ذلك فسيلحقهم مثله لأن التماثل في الأسباب يقتضي التماثل في المسببات . "[1]

٥ــ إبطال عقيدة المشركين :

قال تعالى:﴿**قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ . وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ.**﴾(يونس: ٣٥ ــ ٣٦) فجاءت الجملة المنفيّة بـ(ما) معطوفة على جملة (هل من شركائكم من يهدي إلى الحقّ) فقد تبيّن فيها أنّهم يعبدون أوثاناً لا تصرّف ولا تدبير ولا هداية لها ، ثمّ أعقب ذلك بأنّ عبادتهم إيّاها لاتّباع لظنّ باطل[2].

وقال عزّ وجلّ : ﴿ **مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ.**﴾ (يوسف:٤٠) ففي الجملة المنفيّة دلالة على إبطال وجود تلك الآلهة ، "ومعنى قصرها على أنّها أسماء قصراً إضافيّاً، أنّها أسماء لا مسمّيات لها ، فليس لها في الوجود إلاّ أسماؤها."[3]

٦ــ الحكمة من إرسال الرسل :

قال تعالى:﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ.**﴾(الأنبياء:٢٥) وفي هذا بيان أنّ الرسل كلّهم جميعاً أرسلوا لحكمة واحدة ، هي الدعوة إلى توحيد الله تعالى بالعبادة ، ونبذ ما سواه من المعبودات الباطلة. وقد جاء هذا المعنى في سياق الحصر بـ(ما) و(إلاّ) ؛ لتوكيد وحدة الرسالات السماويّة ، وبيان أنّها كلّها تدور حول عقيدة التوحيد. وهو معنى قد تأكّد بأسلوب الحصر هذا ، فضلاً عن دخول (من) الاستغراقيّة على كلمة (رسول) الّتي نكّرت تعميماً ، للدلالة على شمول الرسالات السماويّة كلّها، ودخولها في هذا الحكم . وقد روي عن قتادة أنّه " لم يرسل نبي إلا بالتوحيد والشرائع مختلفة في التوراة والانجيل والقرآن وكل ذلك على الإخلاص والتوحيد . "[4] وقد ذكر القرطبيّ أنّ معنى الآية هو: " قلنا للجميع لا إله إلا الله فأدلة العقل شاهدة أنه لا شريك له والنقل عن جميع الأنبياء موجود."[5] فبعد تقرير هذه الحقيقة جاء الأمر بعبادته تعالى في قوله تعالى : (فاعبدون) ، وقد

---

(١) تفسير البيضاوي ٣ / ٢٦٤ ــ ٢٦٥ .

(٢) التحرير والتنوير ١١ / ١٦٤ .

(٣) التحرير والتنوير ١٢ / ٢٧٦ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١١ / ٢٨٠ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن ١١ / ٢٨٠ .

وقد وضّح الطبريّ هذا الأمر في تفسيره هذه الآية ، إذ قال: " يقول تعالى ذكره:وما أرسلنا يا محمّد من قبلك من رسول، إلى أمّة من الأمم، إلاّ نوحي إليه أنّه لا معبود في السماوات والأرض، تصلح العبادة له سواي ... فأخلصوا لي العبادة وأفردوا لي الألوهة . "[١]

٧ ــ إثبات أنّ خلقه تعالى بالحقّ :

ورد هذا في قوله تعالى : ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .** ﴾ (يونس:٥) إذ جاءت الجملة المتصدّرة بـ (ما) مستأنفة ، وهي كالنتيجة للجملة السابقة كلّها؛ "لأنّه لمّا أخبر بأنّه الّذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وذكر حكمة بعض ذلك ، أفضى إلى الغرض من ذكره ، وهو تنبيه إلى ما فيها من الحكمة ، ليستدلّ بذلك على أنّ خالقهما فاعل مختار حكيم ؛ ليستفيق المشركون من غفلتهم عن تلك الحكم ... وفي هذا ردّ على المشركين الّذين لم يهتدوا لما في ذلك من الحكمة الدالّة على الوحدانيّة ، وأنّ الخالق فيها ليس آلهتهم."[٢]

٨ ــ بيان جحد الكافرين :

قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ .** ﴾ (لقمان:٣٢) في سياق ذكر محنة العباد في البحر ، إذ يغشّيهم الموج ، ولم يجدوا من دونه تعالى ناصراً ينصرهم ، ولم يجدوا من دونه عندها من ينفعهم ، ومن هو قادر على أن يخلّصهم ممّا هم فيه ، وينجّيهم إلى البرّ ، فلم ينفعهم شريك ، ولا وليّ ، ولا قريب أو بعيد ، إلاّ الله الواحد القهّار ، خالق كلّ شيء الأحد الصمد ، فلم يدعوا في حالهم تلك غيره ، ولم يستجيروا بأحد إلاّ الواحد الأحد . وبعد نجاتهم ، يعود الكافرون لينقضوا العهد ، وأيّ عهد ، ذكره البيضاويّ قائلاً : " وما يجحد بآياتنا إلا كلّ ختّار غدار ، فإنّه نقض للعهد الفطري . "[٣] وأذكر هنا تفسير الطبريّ لهذه الآية ، إذ قال : " وما يكفر بأدلّتنا وحججنا إلا كلّ غدّار بعهده . والختر عند العرب أقبح الغدر ... وقوله كفور يعني جحوداً للنعم غير شاكر ما أسدى إليه من نعمة . "[٤]

الخاتمة

بعد انتهاء صفحات هذا البحث أمكن أن نخلص إلى أنّ (ما) قد دخلت على الجملة الاسميّة في آيات التوحيد ؛ لتفيد المعاني الآتية :

---

(١) جامع البيان ١٧ / ١٥ .

(٢) التحرير والتنوير ١١ / ٩٦ .

(٣) تفسير البيضاوي ٤ / ٣٥٢ ، وينظر : إرشاد العقل السليم ٧ / ٧٧ .

(٤) جامع البيان ٢١ / ٨٥ .

١ــ التوحيد ونفي الشريك ، وذلك بنفي الألوهيّة عن غير الله تعالى ، وإثباتها له وحده . ويلاحظ عدم الاكتفاء بالنفي بـ(ما) وحدها في المواضع الّتي أفادت هذا المعنى، بل جاء النفي بها مؤكّداً بدخول (من) الاستغراقيّة على المنفي .

٢ــ نفي الهادي والمكرم من دون الله تعالى ، كما نفي الوليّ والعاصم والمعين والناصر ، من دونه تعالى ، ونفي الشفيع من دون إذنه تعالى . وفي نفي هذه المعاني كلّها نرى (من) الاستغراقيّة ملازمة لـ(ما) ؛ لتوكيد نفيها ؛ ممّا يدل على أنّها حقائق ثابتة ، لا تقبل الشكّ، وتنبيهاً على أنّ من أثبتها لغيره تعالى ، كان في ضلالة ، وكانت عقيدته فيها باطلة .

٣ــ نفي غفلته تعالى في إزاء إثبات علم الغيب له عزّ وجلّ . ويلاحظ أنّ هذا المعنى جاء في سياق (ما) العاملة عمل (ليس) ، الّتي زيدت الباء في خبرها توكيداً .

٤ــ إثبات بطلان الأوثان الّتي عبدها المشركون من دون الله تعالى ، فنفيت عنها صفة النطق ، ونفيت عن المشركين صفة العلم ؛ لتثبت لهم صفة الجهل المناقضة لها .

٥ــ وفي أسلوب الحصر ــ بالنفي بـ(ما) ونقضه بـ(إلاّ) ــ جاء التعبير عن معان ثلاثة في آيات التوحيد ، أوّلها: إثبات التوحيد المطلق لله تعالى ، بنفي الألوهيّة عمّن سواه ، وإثباتها له وحده . وثانيها: توحيد الربوبيّة بإثبات ملكه وقدرته على خلقه . أمّا المعنى الثالث ، فهو إثبات ضلال الكافرين قي دعائهم من دونه ، وبطلانه ، فلا نفع فيه ولا رجاء .

كما دخلت (ما) على الجملة الفعليّة ، مفيدة للمعاني الآتية :

١ــ نفي الوليّ من دونه تعالى ، ونفي الولد عنه عزّ وجلّ ، وورد هذان المعنيان في أسلوب يعدّ أقوى أساليب النفي بـ(ما) ، إذ لازمت (من) الاستغراقيّة أسلوب النفي هذا؛ دلالة على قوّة هذا النفي ، فهو حقيقة ثابتة ، ليس فيها مجال للتغيير .

٢ــ إثبات أنّه تعالى عليم بصير ، بنفي خفاء الأشياء عنه جلّ ذكره ، وهذا المعنى أيضاً من المعاني المؤكّدة بـ(من) الداخلة في سياقه .

٣ــ بطلان معبودات المشركين، فنفيت عنهم الحجّة والدليل، إذ لم يكن لهم في عبادتها من سلطان أو برهان على صحّة هذه العبادة، كما نفي عن هذه الأوثان علمها بالبعث، واستجابتها لدعاء من يدعوهم، وأثبت لهم براءتها منهم، وإنكار عبادتهم لهم يوم البعث والحساب .

٤ــ أثبت بهذا النفي افتقار العباد لخالقهم الواحد القهّار ، ونفي عنهم إغناؤهم عن بعض . فهم مهما كانت منزلتهم ، لا ينفعون غيرهم ولا يضرّونه ، وهم فقراء لرحمة

ربّهم العظيم ، وأمرهم كلّه بيده ، يصرّفه كيف يشاء سبحانه . وأثبت بهذا النفي أيضاً براءة الأنبياء من الشرك بالله الواحد الأحد ، فالتوحيد عقيدتهم ، ورسالتهم .

٥ــ اختلاط إيمان المشركين بشرك ، ونفي إخلاصهم في إيمانهم بربّهم . وبيان تبريرهم لإشراكهم بالله غيره ، باتّخاذهم وسيلة تقرّبهم إليه تعالى ، وهم بعملهم هذا ينالون سخط ربّهم وغضبه عليهم ، فكان الحكم بكفرهم وكذبهم. كما أفاد النفي بـ(ما) بيان تقليدهم لآبائهم في شركهم ووعيدهم على ذلك .

٦ــ إبطال عقيدة المشركين ببيان اتّباعهم الظنّ ودعوتهم لأسماء سمّوها هم وآباؤهم .

وعلى ما سبق يمكن القول إنّ النفي بـ(ما) ، ورد في آيات التوحيد في سياقات ذكرت فيها حقاق وأحكام مقطوع بها ؛ لذا جاءت أغلب مواضعه مؤكّدة ، فهي حقائق ثابتة ، وأحكام واقعة، غير قابلة لاحتمالات غيرها. ويستثنى من ذلك ما جاء حكاية عن المشركين قولهم: (لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شي) ، فجاءت في جواب (لو) . وقد مرّ تفصيل القول في ذلك في موضعه .

المصادر والمراجع

١ــ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : أبو السعود ت٩٥١ هـ ، دار إحياء التراث العربيّ ، بيروت (د.ت) .

٢ــ أساليب النفي في القرآن الكريم : أحمد ماهر البقريّ ــ دار المعارف ١٩٨٤ .

٣ــ أسرار العربيّة : أبن أبي سعيد ت ٥٧٧هـ ، تح . د.فخر صالح قدارة ، دار الجيل، بيروت ، ط١ ١٩٩٥ .

٤ــ التبيان في إعراب القرآن : العكبريّ ت٦ ١٦هـ ، تح .علي محمّد البجاويّ ، بيروت ط٣ ١٩٨١ .

٥ــ التحرير والتنوير : ابن عاشور، الدار التونسيّة (د.ت) .

٦ــ تفسير البيضاوي ت ٧٩١ هـ ، تح. د. عبد القاهر عرفات ، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦ .

٧ــ جامع البيان عن تأويل آي القرآن : الطبريّ ت٣١٠هـ ، دار الفكر،بيروت ١٤٠٥ هـ .

٨ــ الجامع لأحكام القرآن : القرطبيّ ت٦٧١هـ ، تح.د. أحمد عبد الحميد البردونيّ، دار الشعب ، القاهرة ، ط٢ ١٧٢ .

٩ ــ الحروف العاملة في القرآن الكريم:د.هادي عطيّة مطر الهلاليّ،علم الكتب،بيروت،١٩٨٦.

١٠ ــ الخصائص : ابن جنّيّ ت٣٩٢هـ، تح.محمّد علي النجّار ، عالم الكتب، بيروت .
١١ــ دراسات في البلاغة العربيّة:د . عبد العاطي غريب علاّم ، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي ، ط١ ١٩٩٥ .
١٢ــ شرح قطر الندى : ابن هشام الأنصاريّ ت٧٦١هـ ، تح . محمّد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ، ط١١ ، ١٣٨٣ هـ .
١٣ــ شرح المفصّل : ابن يعيش، القاهرة (د.ت) .
١٤ ــ فتح القدير : الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير : الشوكانيّ ت١٢٥٠هـ، دار الفكر ، بيروت ، ط٦ ١٩٨٥ .
١٤ــ فتح المجيد من كتاب التوحيد : عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ، جمعيّة إحياء التراث الإسلاميّ ، الكويت ، ط٥ ٢٠٠٤ .
١٥ــ الفوائد والقواعد : الثمانينيّ ت٤٤٢هـ ، تح . عبد الوهّاب محمود الكحلة ، مؤسّسة الرسالة ط١ ١٤٢٤ هـ .
١٦ــ القول المفيد في شرح كتاب التوحيد : محمّد بن صالح العثيمين ، تح . أحمد الطحّان / دار المنار ، ط١ ٢٠٠٤ .
١٧ــ معاني القرآن : الفرّاء ت٢٠٧هـ ، تح . إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلميّة، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٢ .
١٨ــ اللباب في علل البناء والإعراب : أبو البقاء العكبريّ ت٦١٦هـ، فخر الدين قباوة، دار الجيل ــ بيروت ط١ ١٩٩٥ .
١٩ــ المفصّل في صنعة الإعراب : الزمخشريّ ت٥٣٨هـ ، تح . علي أبو ملحم ، مكتبة الهلال ، بيروت ، ط١ ١٩٩٣ .
٢٠ــ النكت في تفسير كتاب سيبويه :الأعلم الشنتمريّ ت٧٤٦هـ، تح. زهير عبد المحسن سلطان ، منشورات معهد المخطوطات العربيّة ، الكويت ١٩٨٧ .